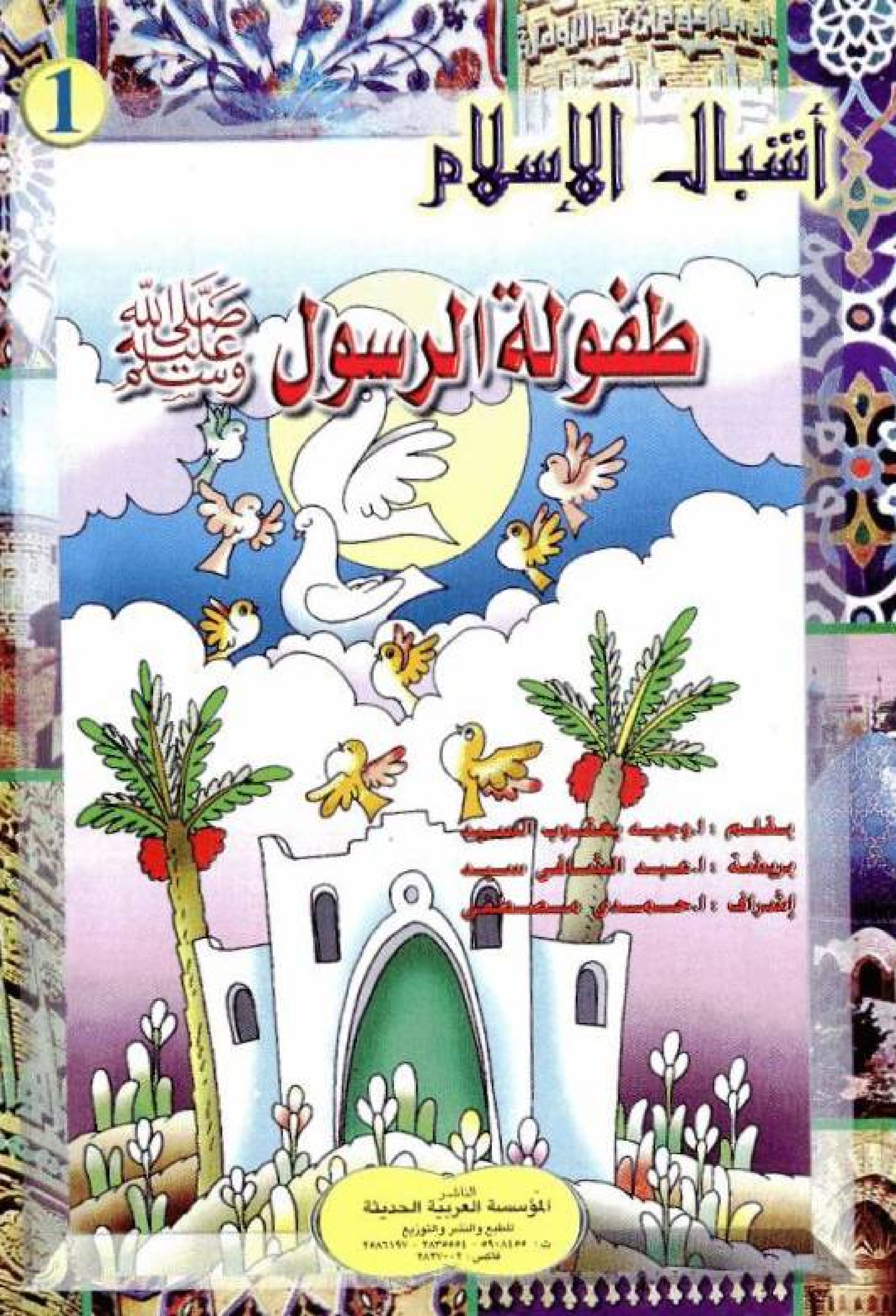

1
أشبال الإسلام
طفولة الرسول صلى الله عليه وسلم
بقلم: الوجيه يعقوب السيد
بريشة: عبد الشافي سيد
إشراف: حمدي مصطفى
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥١ - ٢٨٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٣٦٠٠٢



1

«الطفولة» مرحلة مهمة للغاية. وهى ليست مجرد مرحلة للهو واللعب وتضييع الوقت فيما لا يفيد، ولكنها مرحلة إعداد جادة لما سيكون عليه الإنسان فى شبابه وفى رجولته.

وفى هذه السلسلة تطالع:

صورا مختلفة للنبوغ والتفوق والبطولة الخارقة والرجولة المبكرة عند «أبطال صغار» صنعوا المعجزات برغم حداثة أعمارهم، فكان من بينهم: العالم، والمحارب الشجاع، وقائد الجيش.

إن «الطفل الصغير» يستطيع أن يعرف دوره فى الحياة، من خلال مطالعته لهذه النماذج المشرقة، ويستطيع أن يقدم الكثير من الأعمال النافعة لنفسه ولأسرته ولوطنه.

وسوف يجد الطفل المتعة فى أثناء قراءة هذه السلسلة التى كتبت بأسلوب قصصى مشوق ولغة أدبية شفافة.

وجيه يعقوب السيد
مدرس مساعد بكلية الألسن
جامعة عين شمس

طفولة الرسول ﷺ

بقلم: ا. وجيه يعقوب السيد
بريشة: ا. عبد الشافى سيد
إشراف: ا. حمدى مصطفى

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

قدْ تعجزُ الكلماتُ عنْ تصْويرِ مَشاعرِ المَرْءِ ، وَهو يُحاولُ أنْ يَتحدَّثَ عنْ طرفٍ منْ حياة (مُحمد) ﷺ .

النُّورُ الذى انْبثَقَ مِنْ (مَكَّةَ) منْ قَلْبِ الظَّلامِ ، فَأَضاءَ القُلُوبَ وَالْعُقُولَ قبلَ أنْ يُضىءَ المكَانَ .

الشَّمْسُ التى أَشْرقَتْ ، فَسَرى ضَوْؤُها وَدِفْؤُها فى الأَفْئدةِ وَالْجَوانِحِ .

طُفُولتهُ ﷺ هى النمُوذجُ الأَمْثَلُ والقُدْوةُ الحسَنةُ ، التى يَجِبُ أن يَقْتدىَ بِها كلُّ أَطْفالِ الدُّنْيا .

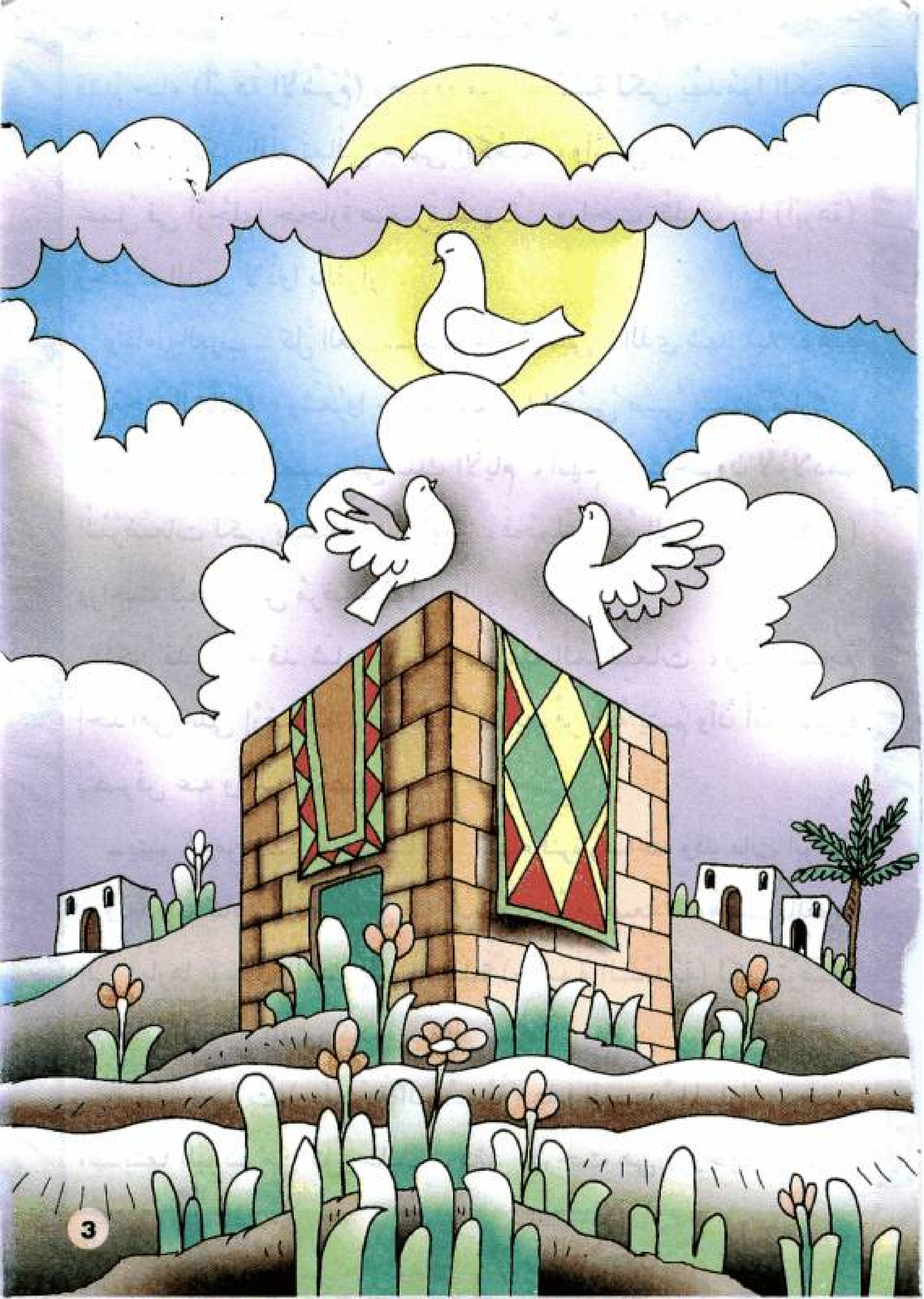
ذَلكَ لأَنَّها كانَت طُفُولَةَ أَعْظمِ إِنْسانٍ مَشَى على ظَهْرِ الأَرْضِ .. طُفُولَةٌ اجْتمعتْ فيها كلُّ مَعانى الْكمَالِ وَالْعظَمَةِ والْجَلالِ . ظَهَرَتْ فِيها الرُّجُولَةُ الْمُبكِّرَةُ ، والبطُولةُ ، والإحساسُ بالمسْئوليةِ .

وَمَا أَجملَ أَن يَكونَ البَدءُ قَبسًا من نُورِ (محمد) صلواتُ ربِّى وسلامُه عليه ..

وَهُوَ لا يَزالُ جَنينًا فى بطنِ أُمِّهِ ، مَاتَ أَبوهُ (عبدُ اللهِ بنُ عبدِ المطلبِ) ، وكانت أُمُّه (آمنةُ بنتُ وَهْبٍ) تشْعُر بأَنَّها تَحْملُ فى أَحْشائِهَا نُورًا ، وَتشْعُرُ شُعورًا أَكيدًا بأَن الذى تَحْمله ليسَ طِفْلاً عاديًا .

وَبَعْد انْقضاءِ أَشْهُرِ الْحَمْلِ ، وَضَعتْ (آمنةُ بنتُ وَهْبٍ) أَفْضلَ مَخْلوقٍ ، وذَلكَ يَوْمَ الاثنينِ الْمُوافِقِ الثانى عشرَ منْ شَهرِ رَبيعِ الأَوّلِ .

وَفى هذا العَامِ الذى وُلدَ فيه (محمدٌ) شهِدَ العَربُ مُعْجزةً خارقةً .



فقدْ جاءَ (أَبْرهةُ الأَشْرَمُ) وجُنودُه من الْحَبَشةِ لِكى يَهْدِمُوا الكَعْبةَ المشرَّفةَ ، لكنَّ اللَّه تعالَى حَمَى الكَعْبةَ ، وأَرْسَلَ طُيورًا من السَّماء تحملُ فى أرْجُلِها حِجارةً صَغِيرةً مُلْتَهِبَةً ، وراحتْ تقْذفُ بها (أَبْرهةَ) وجُنُودَه الذين لاذُوا بالْفِرارِ .

وتَفاءلَ العربُ ـ كلُّ العرب ـ بمَولِد هَذا الصَّبىِّ ، الذى شَهد مِيلادُهُ هذه الْمُعْجزةَ الْخَالدةَ ، وشَعَرُوا جميعًا بأَنَّ هذا الصَّبىَّ صَبِىٌّ مَيْمُونٌ مُبارَكٌ .

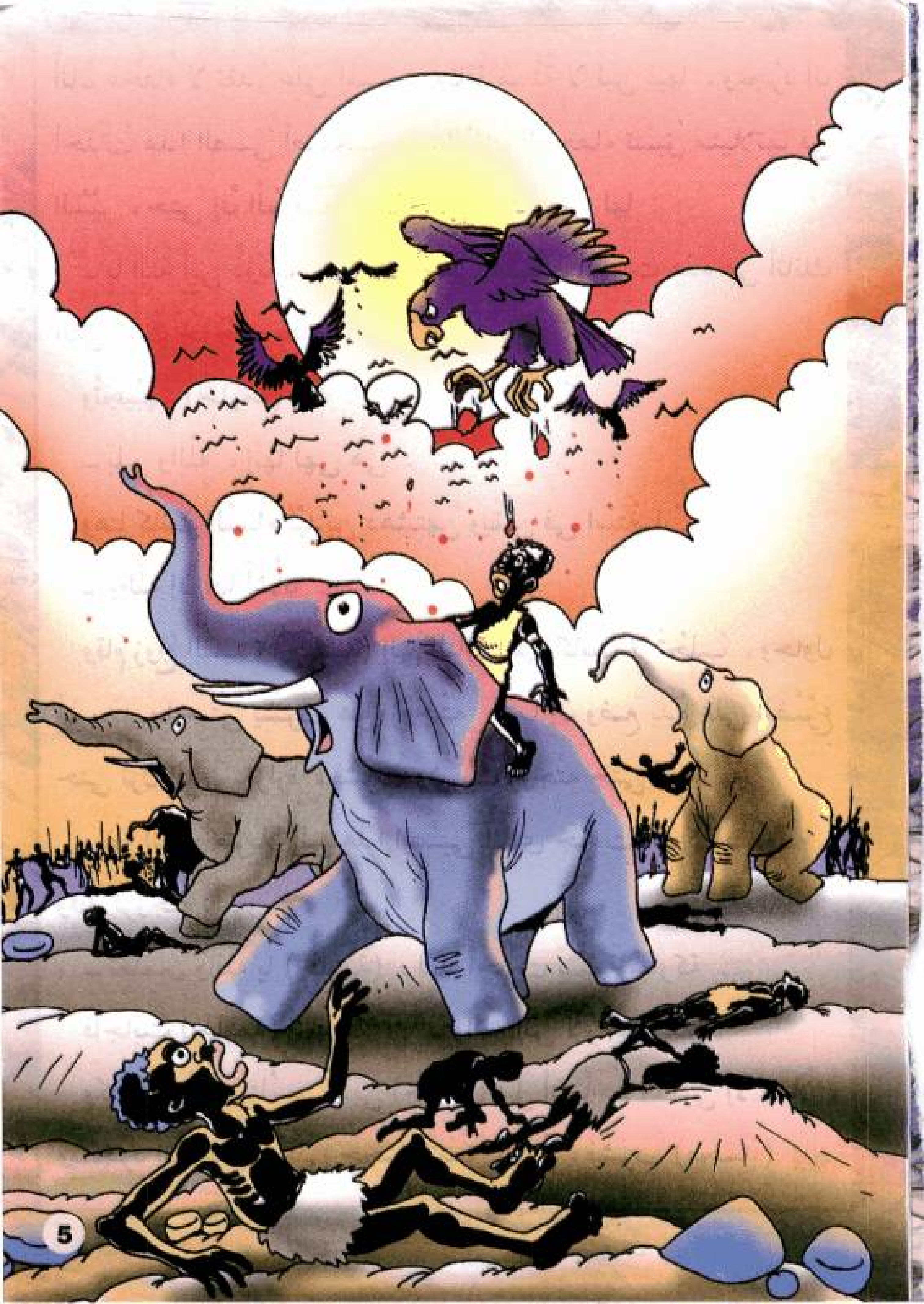
وكانت عادَةُ الْعَربِ فى تلكَ الأيَام ، أَنَّهُم يسْتَأْجِرون لأَوْلادِهم الْمُرْضَعاتِ لكى ينْشئوا نَشْأَةً قَوِيَّةً ، فَحَملتْهُ أُمُّهُ إلى سوقِ (عُكَاظَ) ورَاحَت تَبْحثُ عن مُرضِعةٍ لِولِيدِها .

لكنَّ قَدَرَ اللَّه قد شَاءَ أَنْ تنصرفَ عنهُ الْمُرْضِعاتُ ، ولَمْ تتشجَّعْ إِحداهُنَّ على إرْضاعِه ، فَبِمجرَّد أَن يعرِفْنَ أَنَّهُ يَتيمٌ وأنَّ أُمَّهُ فقيرةٌ يَنْصرِفْنَ عنه ويَقُلْنَ لبَعْضِهنَّ :

ـ يَتيمٌ ؟ ومنِ الذى سَيُكافِئُنا بعدَ انتهاءِ فترةِ رَضاعَته وَقد ماتَ أَبُوه ؟!

وبَعدَ أنْ كادتْ أُمُّه تيْئسَ من أنْ تَجدَ لَهُ مُرْضِعةً ، وهَمَّت بالعَوْدة إلى دِيارِها ، ساقَ الْقدرُ إليه السيدةَ (حليمَةَ السَّعْديَّة) لكى تُرْضِعَهُ مع ابْنها الرَّضيع الذى كان فى مثل عُمرِه .

ومَا إِن أخَذَتْ (حليمَةُ السَّعْديَّةُ) هذا الصبىَّ المباركَ ، حتى أَصابَتْهَا البَرَكةُ من كلِّ جانبٍ ، فقد خرجت هى وزَوْجُها ومَعهُما



أَتانٌ عَجْفاءُ لا تقدرُ على المسِير ، وناقةٌ مُسنَّةٌ لا لَبَن فيها ، وبمجرَّد أن أخذَتْ هذا الصبىَّ أصبحتْ هذه الأتانُ الْعجفاءُ تسْبقُ مثيلاتها فى السَّيْرِ ، حتى إنَّ الْمُرْضَعاتِ لاحظْنَ ذلك فَقُلْنَ لها :

ـ يا ابْنَةَ أَبِى ذُؤَيْب ، وَيْحكِ أَرْبِعى علَيْنا ، ألَيْست هذه هى أتانَك التى كنتِ خرَجْتِ عليها ؟

وتُجيبُهم (حليمةُ) :

ـ بَلَى واللَّهِ ، إِنَّها لهِىَ هىَ .

وهنا كانت النِّساءُ يُبْدين دَهْشَتَهُنَّ ويقُلْنَ فى اسْتِغْرابٍ :

ـ واللَّه إنَّ لها لَشأْنًا .

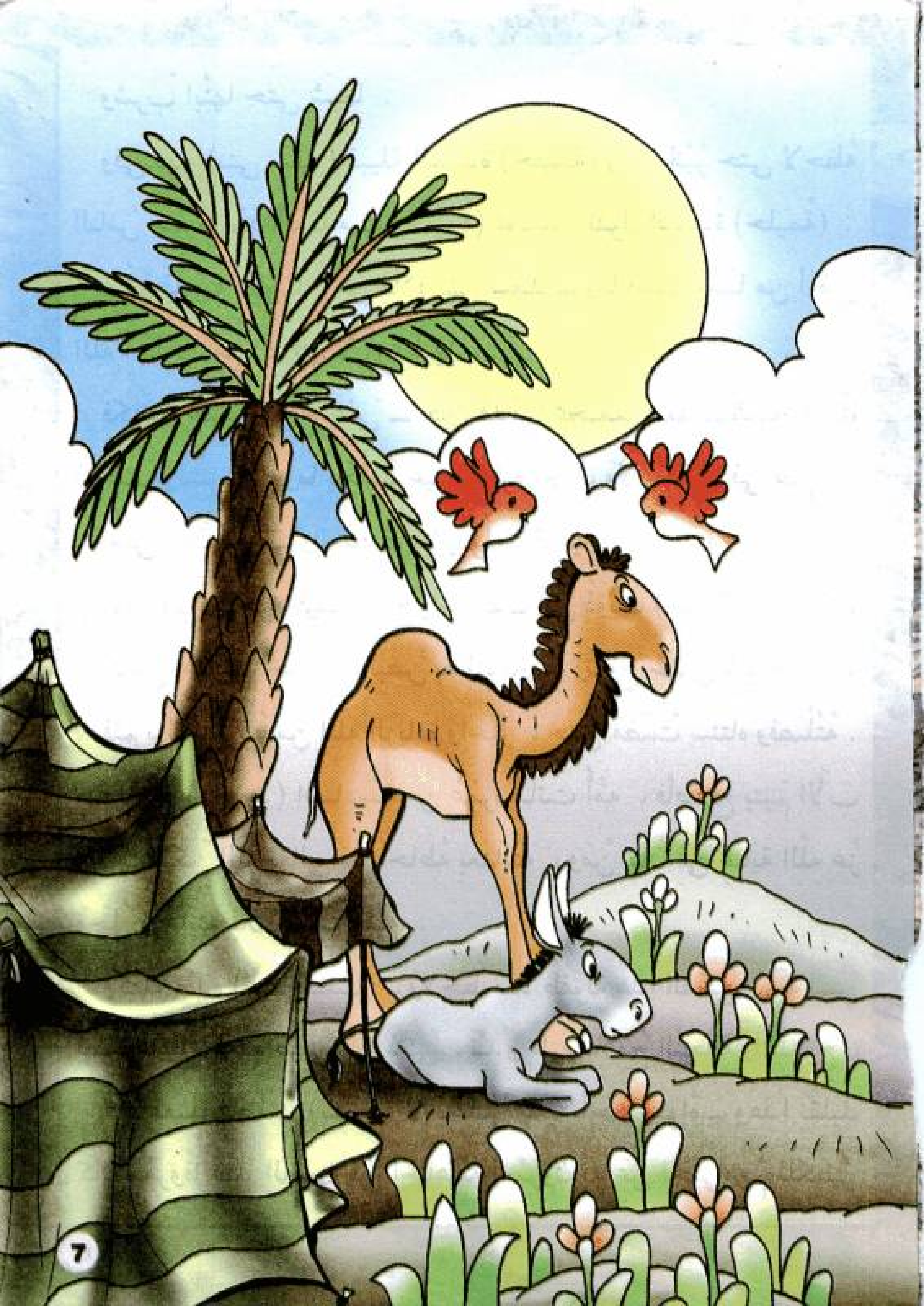
وقامَ زوجُ السيدةِ (حليمةَ) إلى الناقةِ التى كانت لا تُحْلِبُ ، وحَاول أن يَحْلِبَها حتى يشْربَ هُو وزوْجتُه ، وما إِن وضعَ يدَهُ على الضَّرْعِ حتى نَزلَ اللَّبنُ بِغَزارةٍ ، فشربَ وشربتْ زَوْجتُه حتى شَبِعَا .

وَنَظَر الزَّوْجُ طويلاً إلى هَذَا الصَّبىِّ الذى جَاءَتِ الْبَركَةُ بقُدُومِه ، وقالَ لزوْجته :

ـ تعْلَمِينَ وَاللَّهِ يا (حَلِيمةُ) ، لقد أَخَذْتِ نَسْمةً مُباركة .

فأَجابَت (حَلِيمةُ) : ـ واللَّهِ إِنى لأَرْجُو ذلكَ .

وكانَ اللَّبنُ لا يَنْزلُ مِن ثَدْيَى (حَلِيمة) قبلَ أن تأخذَ الصَّبىَّ إلا قليلاً ، وَبِمجردِ أَن وَضَعَتْهُ على حِجْرِها تدَفَّقَ اللَّبنُ ، فشربَ (محمدٌ) ﷺ



وشربَ ابنُها حتى شبعًا .

وفى ديار (بَنِى سَعْد) قبيلةِ السَّيدةِ (حليمةَ) زادَ الخيْرُ حتى لاحظَهُ الناسُ جميعًا بعْدَ أن قَدِمت (حَلِيمةُ) بمحمدٍ . تقُولُ السيدةُ (حلِيمةُ) :

ـ ثُمَّ قَدِمْنا منازِلنا ، من بلادِ بنى سعدٍ ـ وما أَعْلَمُ أرْضًا من أرضِ اللَّه أجْدَبَ منها ـ أى لا زَرعَ فيها . .

فَكانت غَنَمِى تَرُوحُ علىّ ـ حين قَدِمْنا بمحمد مَعَنا ـ شِباعًا لبنًا فنحلُبُ ونشْربُ ، وما يحْلُبُ غيرُنا قطرةَ لبنٍ ، ولا يجدُها فى ضَرْعٍ .

حتى كانَ الحاضرُون من قَوْمِنا يقُولُون لِرُعْيَانِهم :

ـ ويلكم اسْرَحُوا حَيْثُ يَسْرحُ رَاعِى بنت أبى ذُؤَيْب (حَلِيمةِ السَّعديَّة) .

فَتروحُ أغْنامُهم جِياعًا ما تبِضُّ بقطْرَةِ لَبنٍ ، وتَروح غَنَمى شِباعًا لبنًا .

فَلَمْ نَزَلْ نتعرَّفُ من اللَّه الزِّيادَةَ والخيْر ، حتى مَضَتْ سَنتاه وفصلْتُهُ .

ولما بَلغَ (محمدٌ) السادسَة من عُمْرِه مَاتت أُمُّه ، فأصْبحَ يتيمَ الأَبِ والأُمِّ ، لكنّ اللَّهَ تعالى قد أَحاطَهُ بِعنايَتِهِ ، ومَنْ كَانَ فِى عِنايَةِ اللَّهِ عزَّ وَجلَّ ورِعايَتِه فلا خَوْفَ عليه .

وكَفَلَهُ جَدُّه (عبدُالمطَّلب) ، وَلاحظَ مُنْذُ طُفُولةِ هذا الصَّبىّ ، أنَّه ليسَ صَبِيًّا عَادِيًا ، لكنه صبىٌّ نابهٌ ذكىٌّ ، تَبْدو عليه ملامحُ النَّجابَةِ والطُّموحِ .

كانَ لعبد المطلب (بِساطٌ) لا يَجْلسُ عليه أحدٌ سِواهُ ـ وهذا تَقْليدٌ كانَ مَعْروفًا عنْدَ العرَبِ فى الجاهلِيَّة يُعبِّرون به عَن احْترامهمْ للكبير



وتَقْديرهم لمكانَته . ولم يكنْ أحدٌ مِنْ أَبْناء (عبدِ المُطلب) يَجْرؤُ على الْجُلوسِ على هذا البِساطِ .

لكنَّ (عبدَالمطَّلِب) كان يَأْخذُ حَفِيدَه ويُجْلسُهُ على هذا البِساطِ ، أو كان هذا الحفيدُ يَجْلسُ مِنْ تِلْقاء نَفْسِه عليه ، وإِذا ما حَاولَ أحدُ أَعْمامِه أن يَمْنعَهُ كان (عبدُالمطَّلب) يَزْجُرُه ويقولُ :

ـ دعُوه ، فإنَّ دمَ السيادةِ يجْرى فى عروقِه ، ورُوحُ المجدِ يملأُ جوانحَهُ ، والنزوعُ إلى الرِّفْعة يدفعُ به إلى المكان الْعالِى .

وكان أَبْناءُ (عبد المطَّلب) يُلِحُّونَ عليه فى السُّؤالِ لكى يفسِّرَ لهم ذلك ، ولماذا لَمْ يختصَّ أحدًا غيرَ (محمد) بهذِه الْمكانة ، فكان يُجيبُهم قائلاً :

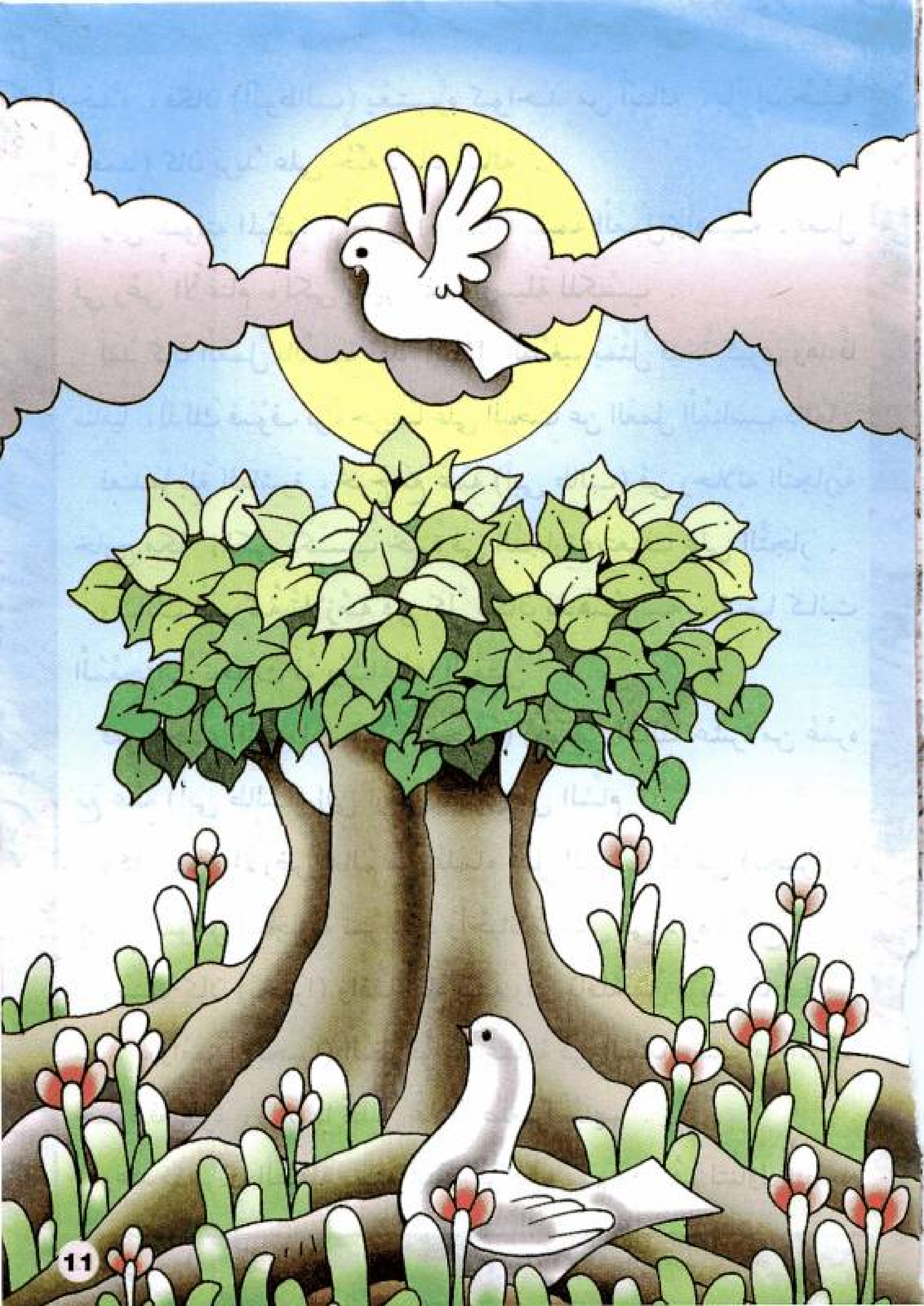
ـ لقَدْ رَأَيْتُ فى منامِى كأنَّ سِلْسلةً مِنْ فِضَّة خَرجَتْ من ظَهْرى ، لها طَرفٌ فى السَّماءِ وطَرفٌ فى الأَرْضِ ، وطَرفٌ فى المشْرِقِ وطرفٌ فى المغْربِ ، ثم كأنها شجرةٌ ، على كلِّ ورقةٍ منها نُورٌ .

وإذا أَهْلُ المشْرقِ والمغْربِ كأنَهُم يتعلَّقُون بها ويحْمدُونها .

ورَأَيْتُ أن رَجُلاً يَخْرجُ من صُلْبى ، تدينُ له العَربُ بالطَّاعَةِ ، وتَعْتَرِفُ لَهُ بالفَضْلِ ، وتُذْعِن له بالشَّرفِ ، وتُؤمِن لَهُ بالسُّلْطان .

كان هذا الحديثُ الهامسُ يدُورُ بيْن (عبد المُطَّلِب) وأَبْنائه بعيدًا عن أَسْماعِ (محمد) ﷺ الذى كان مَشْغُولاً بالتَّأمُّلِ والتَّفكُّرِ .

وَعاشَ (محمدٌ) اليتيمُ فى كَفالَة عَمِّه (أبى طَالبٍ) بَعْدَ أنْ مَات



جَدِّه ، فكان (أَبُوطالب) يَعْتَبِرُه كواحدٍ منْ أَبْنائه ، بلْ إنّ حُبَّهُ (لمحمد) كان يَزيدُ على حُبِّه لسائرِ أبْنائه .

وفى طفُولَته المبكِّرة ، أَحسَّ (محمدٌ) بقيمة العَمل وأَهميَّته ، فَعملَ فى رَعْى الأَغْنام ، لكى يُدبِّرَ لنفسه وَسيلَةً للكَسْب .

لَقَدْ كانَ الْعَملُ بالنِّسبَةِ لهذا الطِّفْلِ الصَّغير يُمَثِّلُ قيمةً كُبْرَى وَهدفًا سَامِيًا ، لِذلكَ فسَوْفَ نراهُ حَريصًا على الْبَحْثِ عن العَملِ الْمُناسب دَائمًا .

فَعِنْدَمَا بَلَغَ العاشرة ، خَرجَ مَعَ عَمِّه (أَبى طالبٍ) فى رِحلاته التِّجاريَّة خَارِجَ مكةَ ، لكى يكْتَسبَ خِبْرةً فى التِّجارة ويتعرَّفَ على التُّجَار .

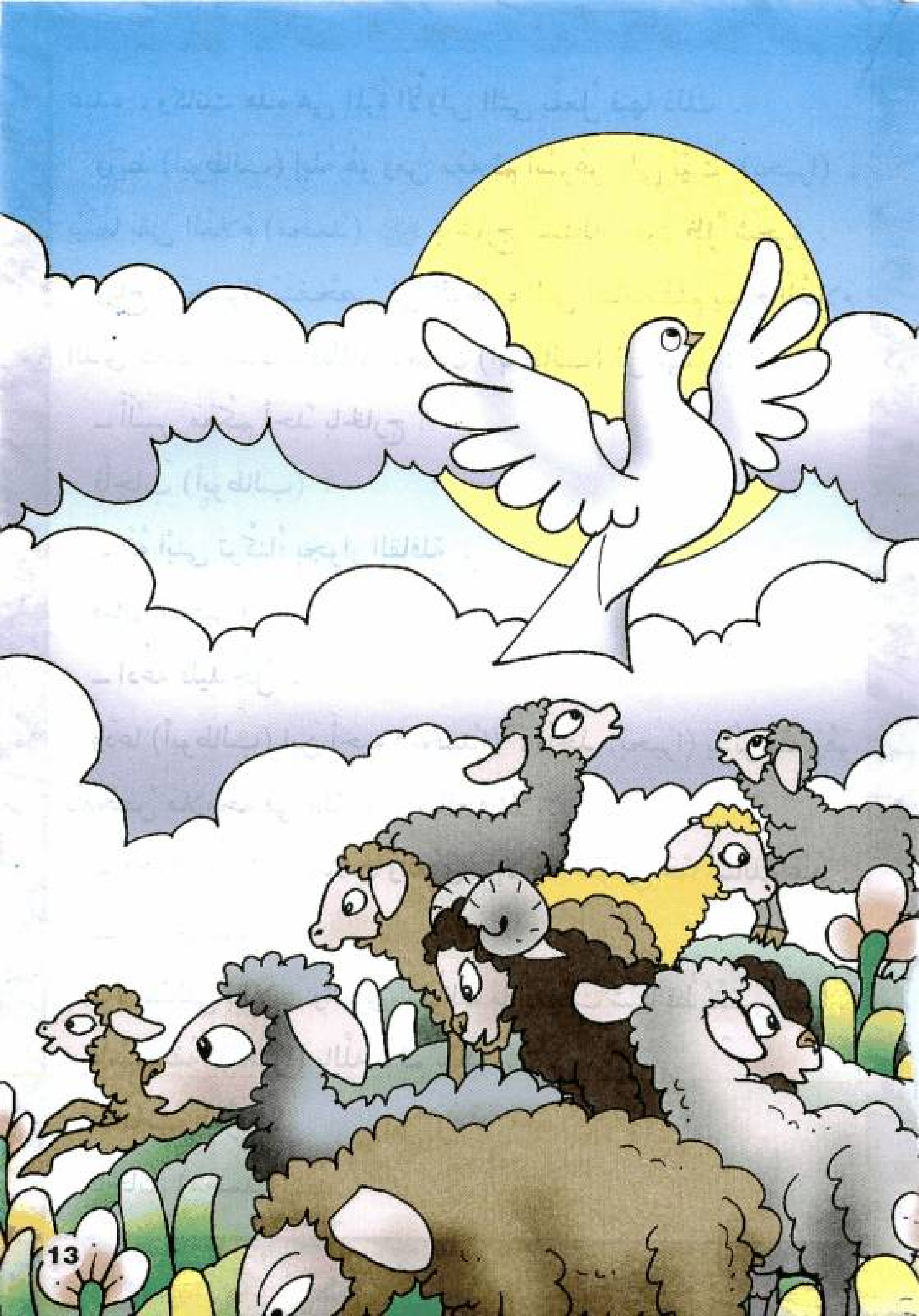
وكانتِ الْبَركةُ تُلازِمُه فى كلِّ مَكانٍ يَذْهَبُ إِلَيْه ، كما كانت الْمُعْجزَاتُ تَحدثُ لَهُ ويُشاهدُها الْبعْضُ .

فَفى إِحدى السَّنوات ذَهبَ (محمدٌ) وَهُوَ فى الثالثَةِ عشْرَةَ من عُمْرِه مَعَ عَمِّه (أَبِى طالب) إلى أرضِ بُصْرَى فى الشَّام .

وكان بهذه الأَرْضِ عالمٌ منْ عُلَماء أَهْلِ الكتابِ يُدْعَى (بَحِيرَا) ، كانت القَوافلُ التِّجاريَّةُ تَمرُّ به ، وَأَحْيانًا تَجْلسُ فى دَاره لتَرْتاحَ .

وبيْنَما كان (بَحِيرَا) وَاقفًا أَمامَ بَيْته رَأَى قَافلةً منْ قُرَيْشٍ قَادمَةً من بَعيد ، وأَمْعَن (بَحيرَا) النَّظَرَ فَوجَد غَمامَةً فى السَّمَاءِ تَسيرُ معَ القَافلَة خُطْوَةً فخُطْوة ، ولَكنها تُظَلِّلُ غُلامًا صَغِيرًا بَيْنَهم .

وعندما مرَّتِ القافلَةُ بِبَيْته أَبْدَى تَرْحابَه بِهم وَدَعاهُم لتناولِ الطَّعَام



عنده ، وكانت هذه هى المرَّةُ الأُولَى التى يفعَلُ فيها ذَلكَ .

وربَط (أبوطالب) إبلَهُ هُوَ ومَنْ مَعَهُ ثم أَسْرَعُوا إلى بَيْتِ (بَحِيرَا) ، بيْنَما بَقِيَ الغُلامُ (محمدٌ) ﷺ بالخارجِ مُسْتَظِلاً تحت ظِلِّ شجَرة .

وراحَ (بَحِيرَا) يَتفحَّصُ فى الوُجُوهِ التى أمَامَه فلم يلْمحِ الْغُلامَ الذى كانت السَّحابةُ تُظلِّلُهُ ، فَسألَ (أبا طَالِبٍ) فى لَهْفَة :

ـ أَلَيْس مَعَكُم أحدٌ بالخارج ؟

فأَجابَ (أبوطالب) :

ـ إنَّهُ ابْنى تَركْناهُ بِجوارِ القافلةِ .

فقال (بَحِيرَا) :

ـ ادْعُه فَلْيدْخُلْ .

ودَعا (أبوطالبٍ) ابنَ أَخِيه (محمدًا) ، فأخذ (بَحِيرَا) يَدْنُو منهُ وَهُوَ يَتَفحَّصُ مَلامحَهُ فى دقَّةٍ ، ثم سأَله قائلاً :

ـ يا غُلامُ ، أَسْأَلُكَ باللاتَ والعُزَّى ، إلا ما أَخبَرْتَنى عمَّا أَسْأَلك عَنْهُ .

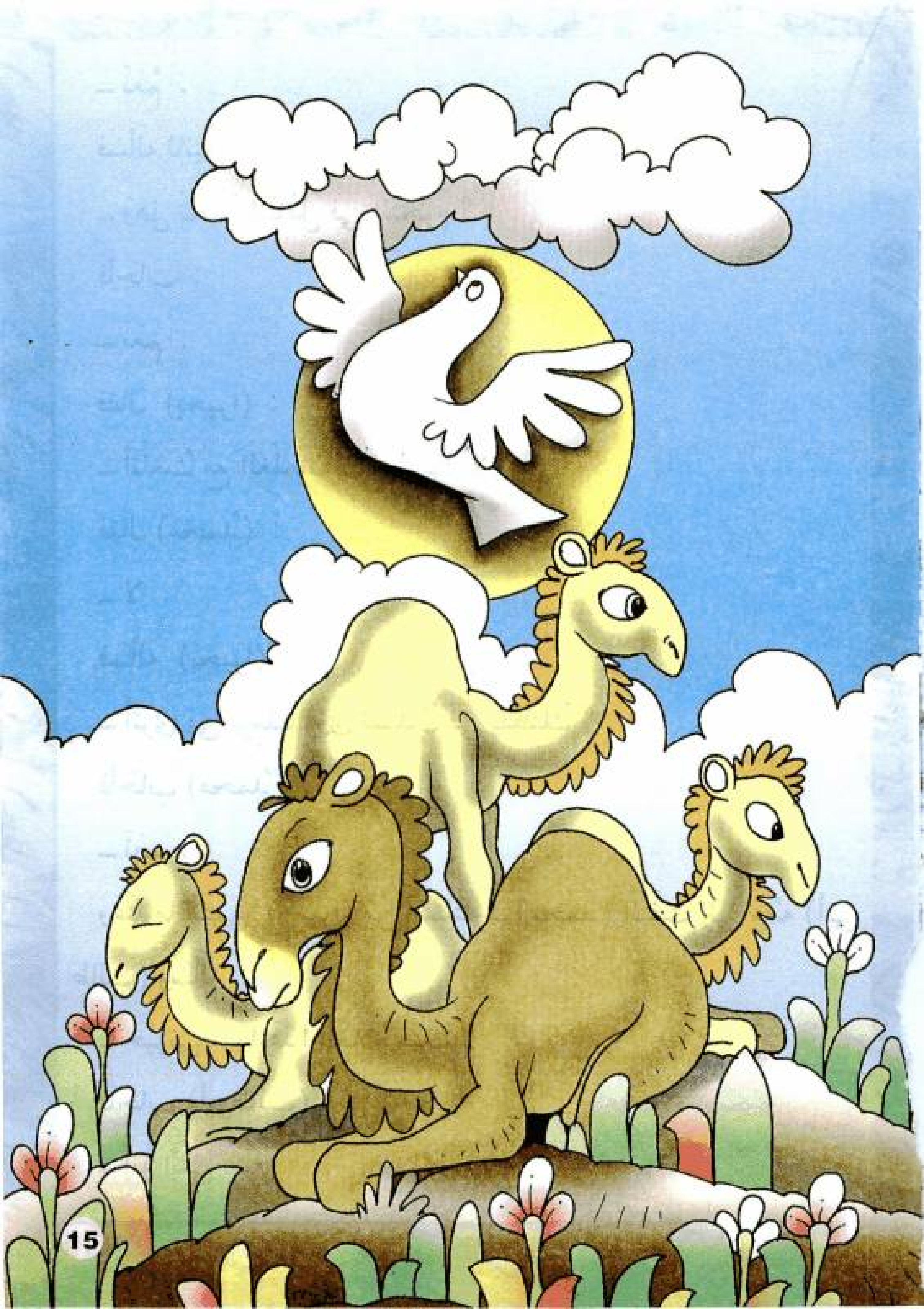
فقالَ (محمدٌ) :

ـ لا تسْأَلْنى باللاتَ والعُزَّى ، فوَاللَّه ما أَبْغَضْتُ شَيْئًا قطُّ بُغْضِى لهُما .

فاسْتَحْلَفهُ (بَحِيرَا) باللَّهِ ، ثم سأَلَهُ :

ـ أَتُحبُّ العُزْلَةَ ؟

فأَجابَ (محمدٌ) :



ـ نَعَمْ .

فسأَلَه ثانيةً :

ـ وَهل تُحبُّ التَّأمُّلَ فى النُّجُومِ ؟

فَأَجَاب :

ـ نَعَم .

فقال (بَحِيرَا) :

ـ أَتلْعبُ مَع الْغِلْمان كما يَلْعَبُون ؟

فقال (محمدٌ) :

ـ لا .

فَسَأَله (بَحِيرَا) :

ـ أَتَرَى فى نومِك رُؤًى تَصْدقُ فى يَقْظَتِكَ ؟

فأَجَابَ (محمدٌ) :

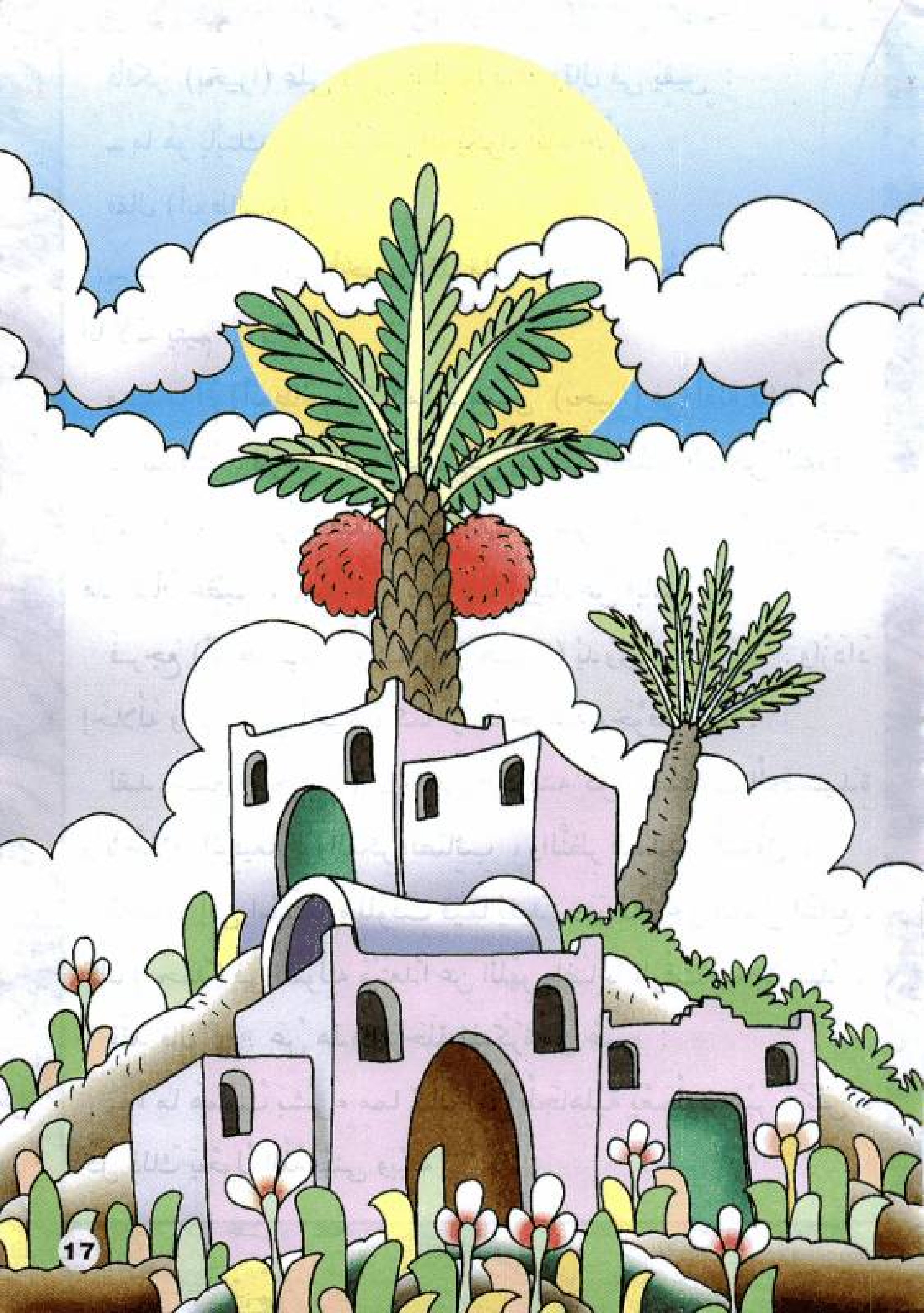
ـ نَعَم .

وعِنْدما انْتَهَى (بَحِيرَا) من أَسْئِلَته لِـ (محمدٍ) الْتَفَتَ إلى عمِّه (أبى طالبٍ) وسَأَلَه :

ـ خَبِّرْنِى ، مَا هَذا الغُلامُ مِنْك ؟

فأجابَ (أبوطالب) :

ـ إنهُ ابْنِى .



فأنكرَ (بَحِيرَا) عَلَى (أبِى طَالِبٍ) قَوْلَه وَقَالَ فى يَقينٍ :

ـ ما هُوَ بابْنِكَ ، وما ينْبَغِى أن يَكونَ أبُوه حياً .

فقالَ (أبوطالب) :

ـ صدقت ، هو ابنُ أخى ، وقد ماتَ أبوه ، وأُمُّه حُبْلَى به ، فكَفَلْتُه أَنا لأَنَّهُ يتيمٌ .

وعندما أَتمَّ (أبُوطالبٍ) كَلامَه ، هَمسَ (بَحِيرَا) فى أُذُنِه قائلاً :

ـ صَدَقْتَ ، فارْجع بابنِ أَخِيكَ إلى بَلَدِه ، واحْذَرْ عليه من اليَهُود . فواللَّه لَئِن رَأَوْه وعَرَفُوا منه ما عَرفتُ لَيَبْغُنَّهُ شرًا ، فَإنه كَائنٌ لابنِ أَخِيك هذا شأْنٌ عَظِيمٌ ، نَجدهُ فى كُتُبِنا وَمَا رَوَيْناه عَنْ آبائنا .

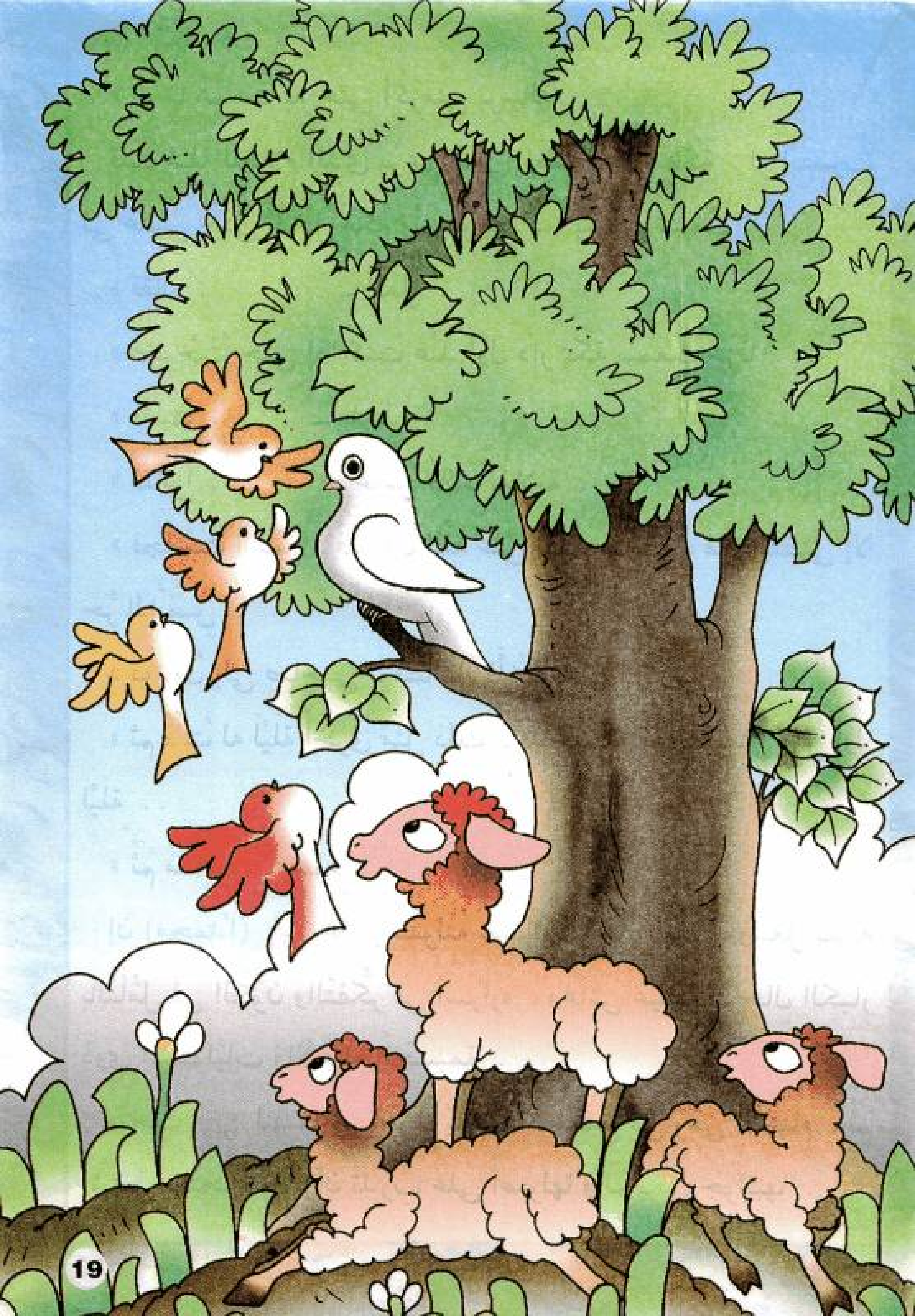
فَرجعَ (أبُوطالبٍ) ، وكَلامُ (بَحِيرَا) يُدوِّى فى أُذُنَيْهِ . وازْدَادَ إجْلالُهُ وحُبُّهُ لابنِ أَخِيهِ ، كما ازْدَادَ حِرْصُه وخَوْفُه عليه .

لقد جَمعَ (محمدٌ) ﷺ فى طُفُولَتِه كُلَّ الصِّفاتِ الْحَمِيدَةِ والأَخْلاقِ الرَّفيعة ، والفِكْرِ الصَّائِبِ ، والنَّظَرِ السَّدِيدِ الْمُوَفَّق .

فَإِضافَةً إلى اسْتِثْمارِه للوَقْتِ فِيما يُفيدُ ، وَبَحْثِه عن الْعَمَلِ النَّافِعِ ، كان (محمدٌ) فى طُفُولَتِه مُبْتَعدًا عنِ اللَّهْوِ وإضَاعةِ الوَقْتِ فيما لا يُفيدُ .

فَقَد قال ﷺ عَنْ هذه المرْحَلَةِ المبكِّرَةِ من عُمره :

ـ « ما هَمَمْتُ بَشىءٍ مما كان أَهْلُ الْجَاهليَّة يَعْمَلُون غَيْرَ مرَّتَيْن ، كُلُّ ذلكَ يَحُولُ اللَّهُ بَيْنى وبينه .



« ثم ما هَممتُ به حتى أكرَمَنى برسالَته .

قلتُ لَيْلةً للغلامِ الذى يرْعَى مَعِى الغَنَمَ بأَعْلى مكّةَ : لو أَبْصرتَ لى غَنَمِى حتى أَدْخُلَ مكَّةَ وأَسمُرُ بِها كما يَسمُرُ الشَّبابُ !

« فقال : ـ أفْعَلُ .

« فَخَرجْتُ حتى إذا كُنْتُ عنْد أَوَّلِ دَارٍ بمكَّةَ سَمعتُ عَزْفًا .

« فقلتُ : ـ ما هذا ؟

« فقالُوا : ـ عُرسُ فُلانٍ بِفُلانةَ .

« فجلَسْتُ أَسْمَعُ . فَضَربَ اللَّه على أُذُنِى فَنِمْتُ ، فما أَيْقَظَنِى إلا حرُّ الشَّمسِ .

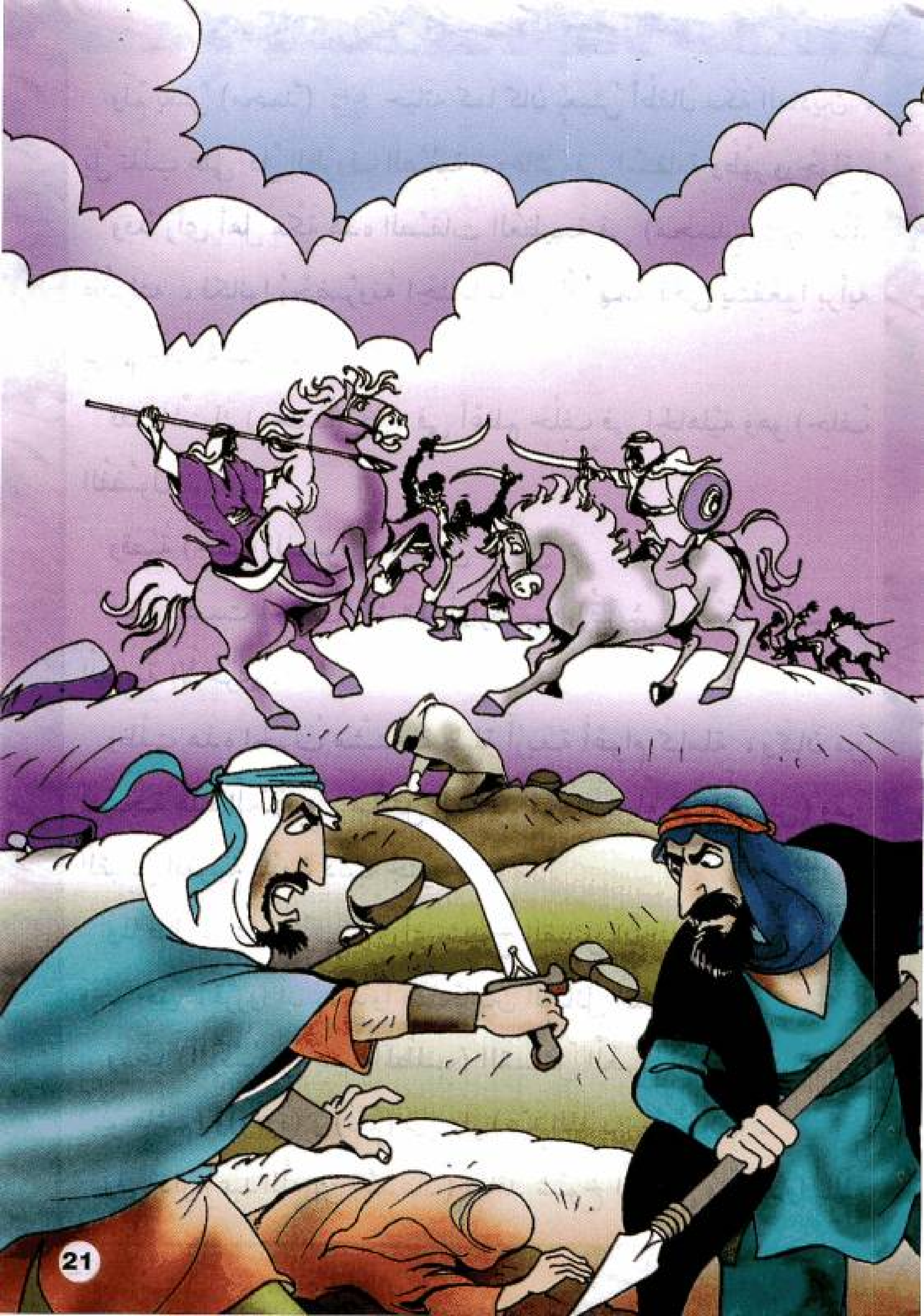
« فَعُدْتُ إلى صاحِبى ، فسألَنى فأَخْبَرْتُه .

« ثم قُلْتُ له لَيْلَة أُخرَى مثل ذَلكَ . فدخلتُ مكَّةَ فأصابَنِى مثلُ أوَّلِ ليْلَة . .

« ثُمَّ ما هَمَمْتُ بِسُوءٍ » .

إنَّ (محمدًا) ﷺ عاش طُفُولَتَهُ بعِيدًا تمامًا عنِ اللَّهْوِ ، وشَغَلَ نَفْسَه بالتَّأَمُّلِ فى الكَوْنِ والتَّفكُّر فى أسرَارِه ، وعاش عيشةَ الرجالِ الكِبارِ ذَوِى المسْئُولِيَّات والأَعْباءِ الْجَسِيمة .

وبَحثَ ﷺ لِنفْسه عن عَملٍ يُناسِبُهُ ، فعَملَ فى رَعْىِ الأَغْنامِ ، ثُمَّ اشْتَغلَ بالتِّجارَةِ بعْدَ أن تَدرَّبَ على أُصولها وأَلَمَّ بكل جَوانِبِها .



ولَمْ يعشْ (محمدٌ) ﷺ حَياتَه كما كان يَعيشُ أطْفالُ مكَّةَ العاديِّين ، بَلْ تغلَّبَ على كلِّ الظرُوفِ الصَّعْبةِ ، وعاشَ فى استِقامةٍ وطُهْرٍ ورجُولة .

وقدْ رَأى أهلُ مكَّةَ هذه الصِّفاتِ العَظيمةَ فى (محمدٍ) ﷺ مُنْذ طُفُولَتِه ، فكانوا يُحْضِرُونهُ اجْتماعاتِهم الْمُهِمَّةَ لكى يَنْتَفِعُوا برأيِهِ برَغم حَداثة سِنِّه .

فقدِ اشْتركَ (محمد) ﷺ فى أَعْظمِ حلْفٍ فى الجاهِليَّةِ وهو (حِلفُ الفُضُولِ) .

وقِصَّةُ (حلفِ الفُضُولِ) هذا هى ما يَلى :

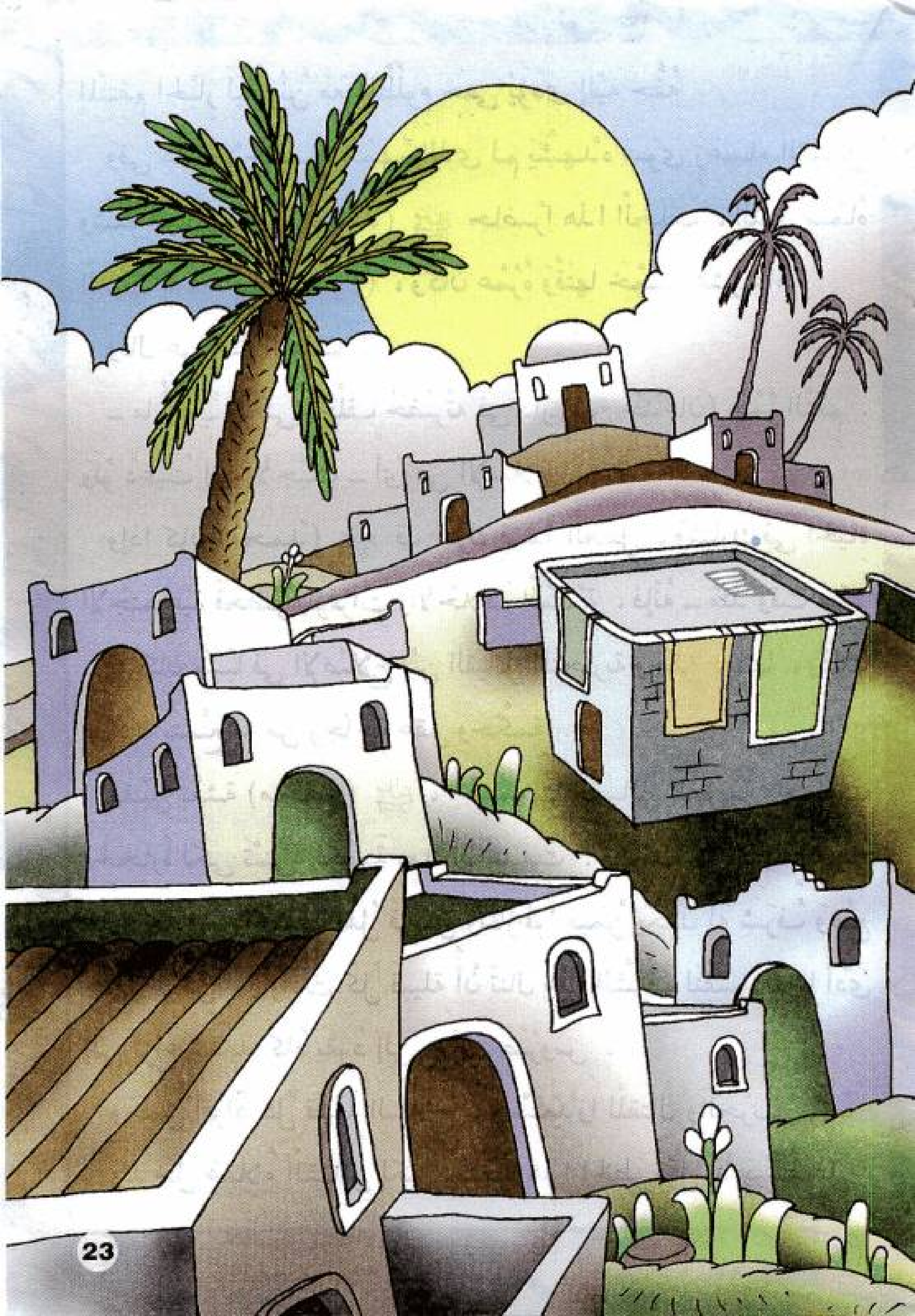
فقدْ نَشَبت الحربُ واشْتدَّ أُوارُها بيَن (قُرَيشٍ) وبعْضِ القبائِلِ الْعَرَبيَّةِ الأُخْرَى .

وظلَّت هذه الحربُ مشْتعِلَةً طِيلة أَرْبعَةِ أعْوامٍ كَاملة ، وكَانَ مِنْ نَتيجةِ هذه الْحَرْبِ : مَقْتَلُ العَديدِ من الأبْرِيَاء من (قُرَيْش) ومِنَ الْقبائلِ الْعَرَبيَّةِ بدُون ذنبٍ جَنَوْه .

ولما طَالَ مَدَى الحرْبِ ، ورَأى شُيوخُ القَبائِلِ أنَّ الدماءَ تَسيلُ بدُون وَجْه حقٍّ ، قَرَّروا أن يَعْقدُوا صُلْحًا بين القبائلِ الْمُتَنَازعة .

وَدَعا (الزُّبَيْرُ بنُ عبدِالمطَّلبِ) القبائلَ الْعَرَبيَّةَ ، فاجْتَمعت (بَنُو هاشم) و(زهْرةُ) و (تَيْمُ) فى دارِ (عَبْدِالله بنِ جُدْعانَ) .

وفِى دارِ (عبدِاللهِ بنِ جُدْعانَ) تعاقَدَ شُيُوخُ الْقَبائلِ وتعاهَدُوا باللَّه



الْمُنْتَقِم الجبَّارِ لَيَكُونُنَّ مَعَ المظْلُومِ حتى يُؤَدَّى إليْه حقُّهُ .

وَفِى هذا الاجْتِماعِ الْمُهِمِّ الذى لم يَشْهدْه سِوَى زُعَماءِ القَبائِل وشُيُوخِها ، كان (محمدٌ) ﷺ حاضرًا هذا الْحلفَ ، الذى سمَّاهُ الْعربُ بـ (حِلْفِ الفُضُول) ، وكان عمْرُهُ وَقْتَها خَمْسةَ عشرَ عامًا .

وقَال عن هذا الْحلْف :

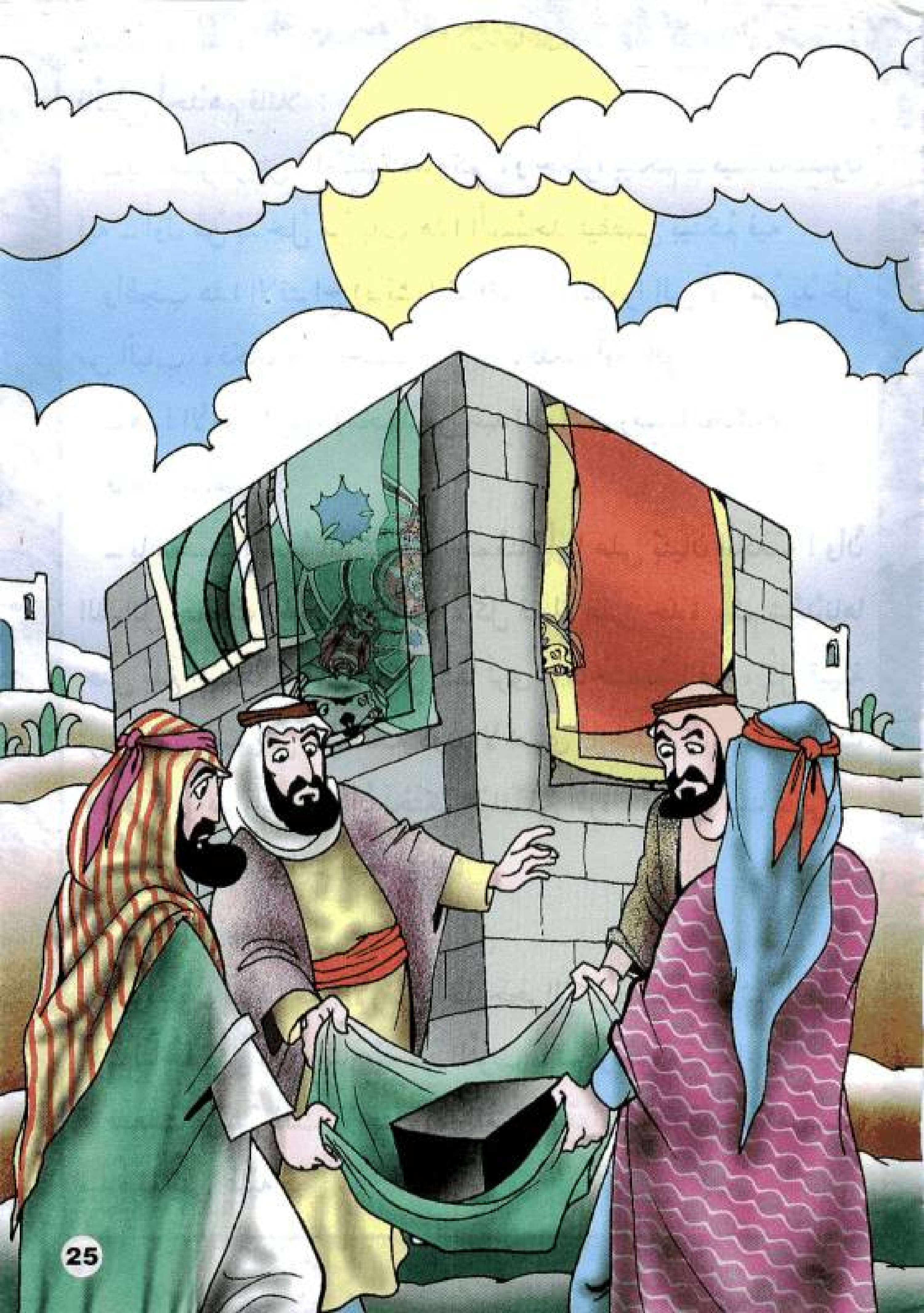
ـ ما أُحِبُّ أنَّ لِى بِحلْفٍ حَضَرتُه فى دَارِ (ابنِ جُدْعانَ) حُمْرَ النَّعَمِ . وَلَوْ دُعيتُ إليه لأجَبْتُ ـ أىْ فى الإِسْلامِ .

وإذا كان (مُحمدٌ) ﷺ قد أَدْرَكَ قِيمةَ الْعَملِ ، وَشارَكَ فى الحيَاةِ الاجْتماعيَّةِ فَحضَرَ المؤْتمراتِ والأحْلافَ الْمُهمَّةَ ، فإنَّهُ ـ مُنذُ وقْتٍ مُبكرٍ ـ قد كان سَبَبًا فى الإِصْلاحِ بَيْن القَبائِلِ المتحاربة وحَقْنِ دِمائها ، وذَلكَ بما كان يَتمتَّعُ به من رَجاحَةِ عَقْلٍ وحِكْمة .

فقَبْلَ بِعْثة (محمد) ﷺ ، اجْتَمعتِ الْقبائِلُ الْعَربِيَّةُ وَجَمعَتِ الحِجارةَ لكى تَبْنِىَ الكَعْبةَ بعد أن هُدِمت . وكانتْ كلُّ قَبِيلةٍ تعْملُ على حِدَةَ . واخْتَلَفَ أهْلُ قُرَيْشٍ وَتنازَعُوا فِيمَنْ يكُونُ لَهُ شَرَفُ وَضْعِ حَجَرِ الرُّكْنِ ، وأَرَادَت كُلُّ قَبيلة أَنْ تَنالَ هذا الشَّرفَ لِنَفْسها ، مما أدَّى إلى نِزاعٍ شَدِيدٍ كادَ يقودُ إلى حَرْبٍ ضَرُوس .

وحَملَ أفرادُ كلِّ قبيلةِ السِّلاحَ ، واسْتعدُّوا للْقتال والْحرْبِ .

وتدخَّلَ عُقَلاءُ الْقبائِلِ لكى يَمْنعُوا هذا الخطرَ قَبْلَ أنْ يَسْتَفْحِلَ ،



فاقْتَرَحَ أَحدُهم قائلاً :

ـ يا مَعْشَرَ قُرَيش ! احْقِنُوا دِمَاءَكم ، واجْعَلُوا بيْنكم ـ فيما تخْتلِفُون فيه ـ أَوّلَ مَنْ يَدْخلُ مِنْ بابِ هذا الْمَسْجدِ ليقْضِيَ بيْنكمْ فيه .

وأعْجَبَ هذا الاقتراحُ (قُرَيْشًا) فوافَقُوا . وتَطَلَّعُوا إلى أَوّل مَنْ يَدْخُلُ مِنَ الْبابِ ، فكان هو (محمدًا) ﷺ ، فَلمَّا رَأَوْه قالوا :

ـ هذا الأمينُ ! هذا (محمدُ بنُ عبدِ اللّه) .. رَضِينا بحُكْمِه .

فقال أحدُهم :

ـ يا محمدُ ! تَعْلمُ أَنّا كُنا قدْ أَجْمعْنا رَأْيَنا على بُنيانِ الْكَعْبَةِ ! وأنَّ القبائلَ جَمعَتِ الحجَارَةَ لِبنائها ، كُلُّ قَبيلةٍ على حِدَة ، ثُم شَيَّدْناها حتى بَلغَ البنيانُ موضعَ الركْنِ كما تَرَى ، فاخْتَصَمْنا فيه ، كُلُّ قبِيلةٍ تُريدُ أن تَرفعَهُ إلى مَوْضِعه دُون الأخرَى ، حتى كادَ ينْشَبُ بيننا القتالُ .. وقد رَأَيْنا الآن أنْ نَحْتَكِمَ إليْكَ في أَمْرِه ، فاحْكُم بيننا بما تَرَى .

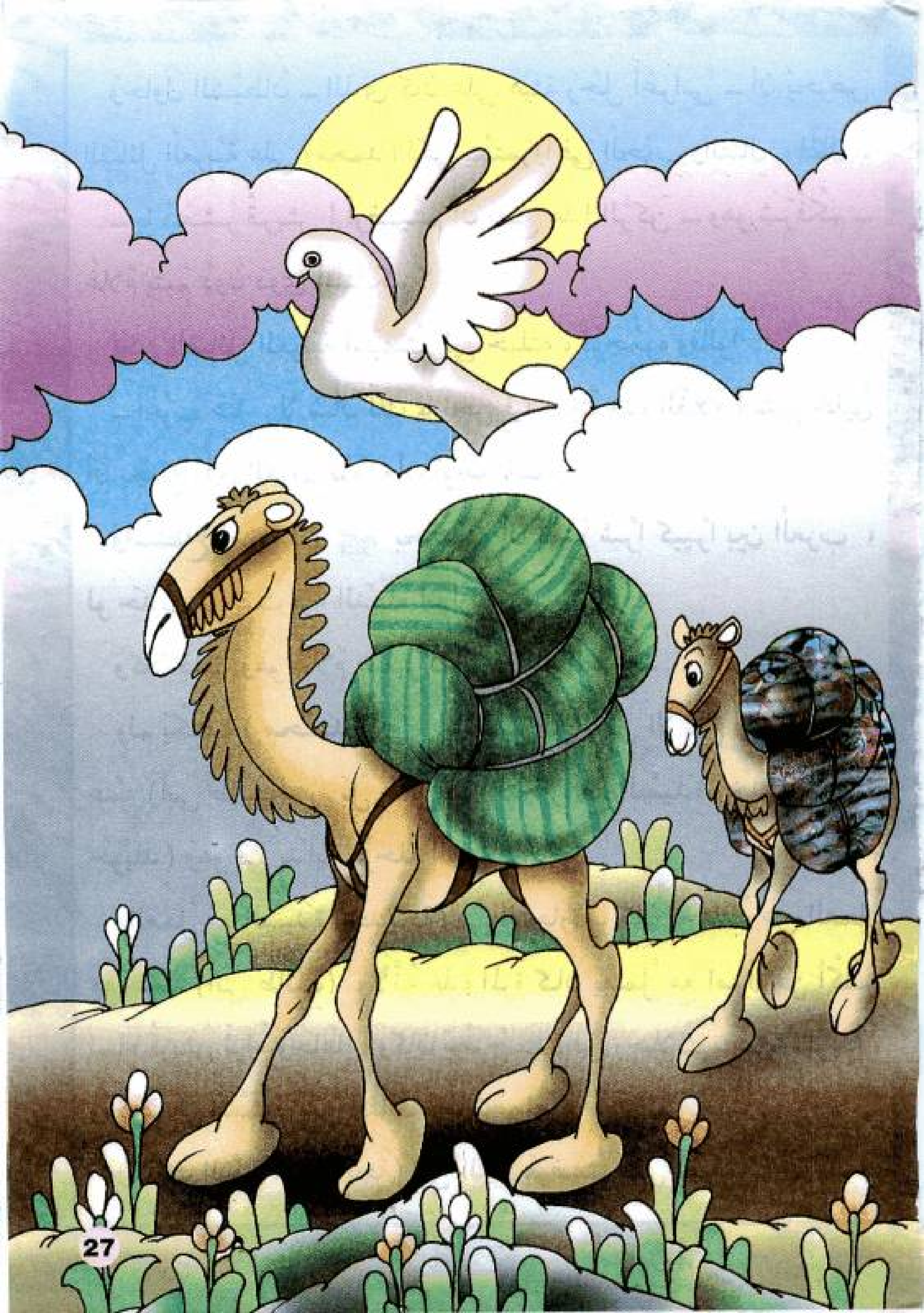
وَبعدَ تفْكِير قال لهم (محمدٌ) :

ـ هَلُمّ إليّ بثَوْبٍ .

فأتَوْهُ بِثَوْب فَفَرشَه على الأَرْضِ وأخَذَ حَجَر الرُّكْنِ فَوَضَعه بِيده ثم قالَ لَهُم :

ـ لِتَأْخُذْ كُلُّ قَبِيلةٍ بِناحِيَةٍ مِنَ الثَّوْبِ ، ثم ارْفَعُوه جَميعًا .

فَفَعلَت قُرَيْشٌ ذَلكَ ، حتى إذا بلَغُوا بِه مَوْضِعَه ، وَضَعَهُ (محمدٌ) بِيده ثم بَنى عَلَيْه .



وَحَاولَ الشيْطانُ ـ الذى كان على هَيْئة رَجُلٍ أعْرابِىٍّ ـ أن يُحرِّضَ القَبائلَ الْعَرَبِيَّةَ على (محمد) لكى يَستمرُّوا فى الْحرْبِ والقِتالِ ، فقالَ :

ـ يا مَعْشَرَ قُريش ! أَرَضِيتُم أَنْ يَضعَ هذا الرُّكنَ ـ وهو شرَفُكُم ـ غُلامٌ يَتيمٌ دُونَ ذَوِى أَسْنانكم ؟

لكن القبائلَ العَربِيَّةَ انْتَبَهتْ إلى حِيلَتِه ، فَرَجَمُوه وقالُوا :

ـ اغْرُبْ عَنَّا . لا شأْنَ لَكَ بما نَحنُ فِيه . إنَّ هذا الغُلامَ اليتيمَ لخَلِيقٌ أنْ يجْمعَ رَأْىَ العَرَبِ يَوْمًا وأن يُوَحِّد الناسَ .

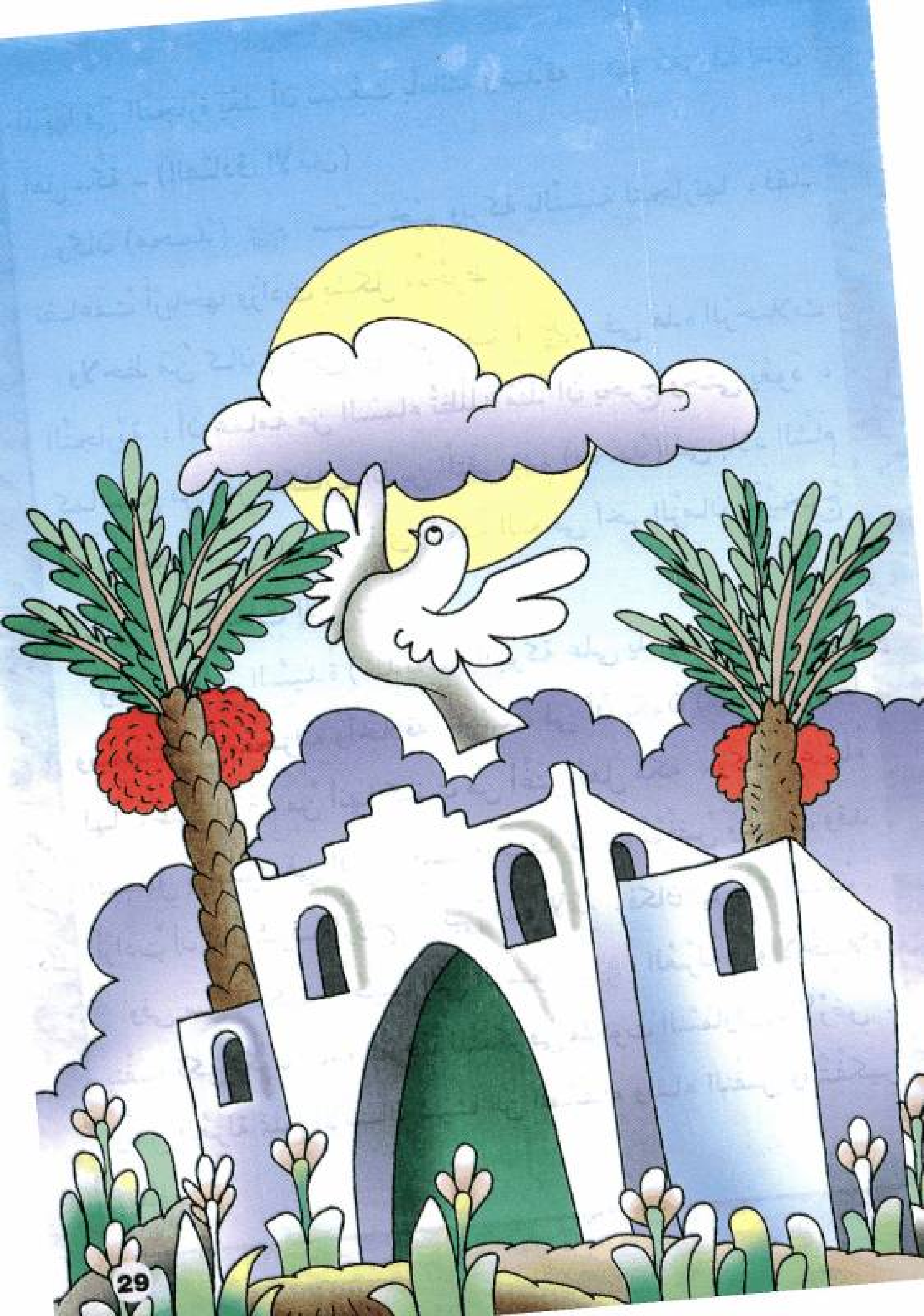
واسْتطاع (محمدٌ) ﷺ بحكْمَتِه أنْ يَمْنعَ شَرًا كبيرًا بين الْعرب ، لو حَدَثَ لأُرِيقتْ فِيه الدِّماءُ أَنهارًا .

وكان ذَلكَ وهو غُلامٌ صَغيرٌ لم يُوحِ اللَّهُ إليه بعْد .

ولم يَكْتَفِ (محمدٌ) ﷺ بالْعملِ فى رَعْىِ الأَغْنامِ والتِّجارَةِ مع عمِّه (أبى طالب) . . بَلْ عَملَ فى التِّجارةِ مع السَّيدَةِ (خَدِيجةَ بنْتِ خُوَيْلد) وَهو فى بِدايةِ مَرْحلةِ الشَّبابِ .

والعَملُ مع السَّيدَةِ (خَديجةَ) فى التِّجارَة ، كان يَخْتلفُ عنِ العملِ مع عمِّه (أَبى طالبِ) ، لأَنَّهُ هذه المرةَ كان يَعْملُ مع امرأةٍ مِن أكْثَرِ نِساءِ قُريشٍ ثَراءً وَجَاهًا ، وكان يَخْرجُ ﷺ فى رِحلاتٍ تِجَارِيَّةٍ طَوِيلةٍ ، ويَكُونُ هو المسْئُولَ عن القَافِلَة ومَا تَحْمِلهُ .

وكانت السَّيدةُ (خديجةُ) هى التى عَرَضتْ على (محمد) أن يَعْملَ



لَدَيْها فى التِّجارَةِ بعْد أن سَمعَتْ بِأَمانته وَصِدْقه ، فهو مَعْروفٌ لَدَى أهلِ مكّةَ بـ (الصّادِق الأَمين) .

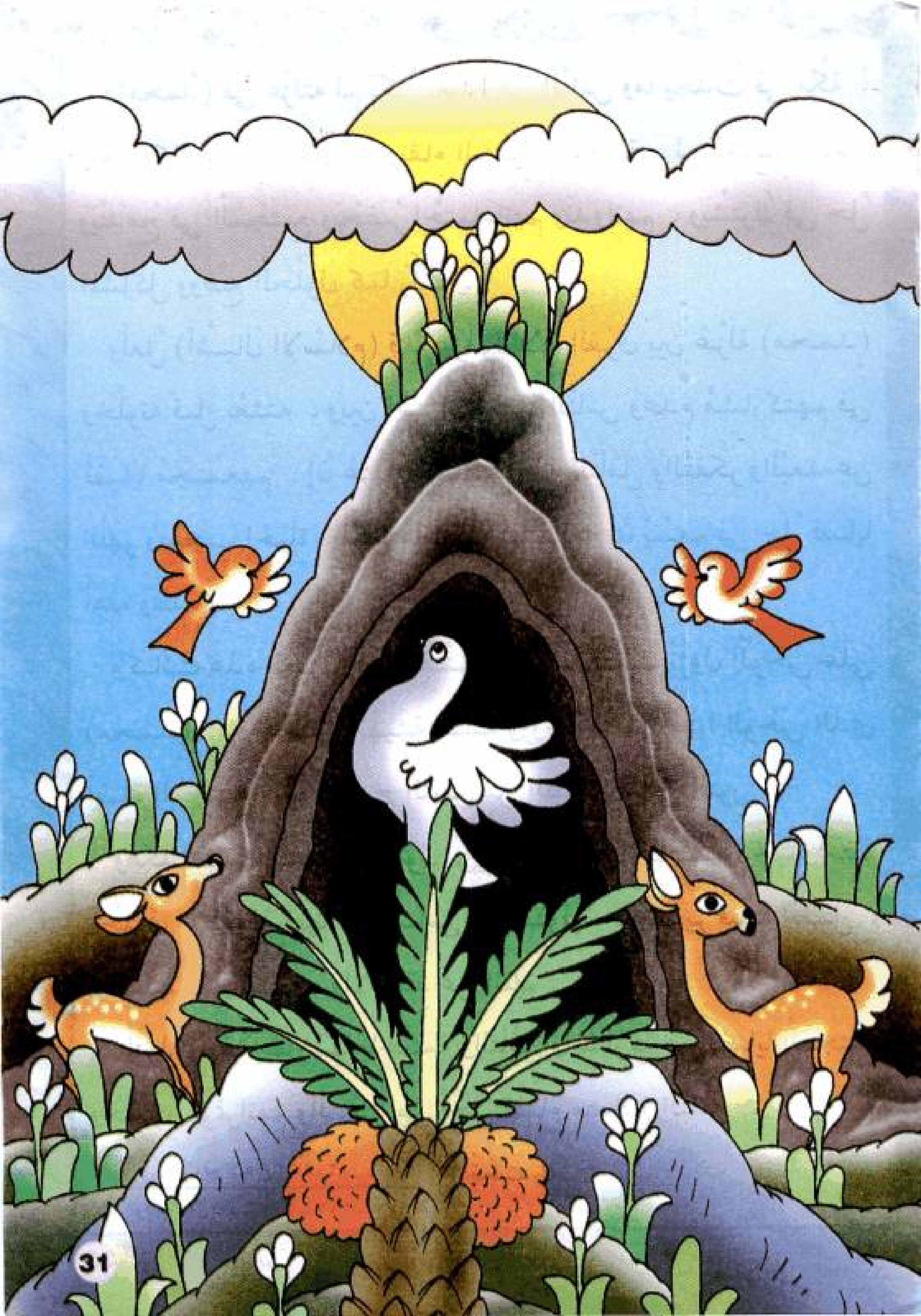
وكان (محمدٌ) ﷺ سببَ خيْرٍ وبَركةٍ بالنِّسْبَةِ لِتجارَتِها ، فقَدْ تضاعَفَتْ أَرْباحُها وزادَت بشكل ملْحُوظ .

ولاحظَ مَنْ كان يخرجُ مع (محمد) ﷺ فى هذه الرِّحلاتِ التِّجارِيَّة ، أَنَّ غمامَةً من السَّماءِ تُظلِّله مُنْذُ أنْ يخرجَ وحتى يَعُودَ ، كما سَمِعَ من أَهْلِ الكِتابِ الذين الْتقى بهم (محمدٌ) فى بلادِ الشّامِ أَنّه سَيكُونُ النَّبِىَّ المنتَظَرَ الذى يَبْعَثهُ اللّه فى آخرِ الزّمانِ ، فَيُخرِجُ النَّاسَ من الظُّلماتِ إلى النُّورِ .

وَعِندما رَأَتِ السَّيدةُ (خَديجةُ) الْبركَةَ على يَد (محمد) ﷺ ، وسَمِعَتْ عَنْ مُعْجِزاتِهِ وَأَخلاقِهِ ، رَغِبَتْ فى أنْ يكونَ (محمدٌ) زَوْجًا لها ، على الرَّغْمِ مِنْ أنها كانت من أَغْنَى أهلِ مكّةَ ، وكان زُعماءُ الْقبائلِ يرْغَبُونَ فى الزَّواجِ مِنْها وَلكِنها كانت تَرْفُضُ وَتأْبى ، وقَدْ أَرَادتْ أنْ تنالَ شرفَ الزَّواجِ مِن نَبِىِّ هذه الأُمَّةِ . فكان لها هذا الشَّرَفُ .

وفى سِنٍّ مُبَكِّرةٍ ، حُبِّبَ إلى الرَّسولِ ﷺ العُزْلَةُ ، والاخْتلاءُ بنفْسِه لكى تكونَ أمَامَه الفُرصَةُ للتَّفكُّرِ فى مَلَكُوتِ السَّماواتِ والأَرْضِ .

ولَعلَّ العُزْلة تمنَحُ الإِنْسانَ شيئًا من الصَّفاءِ ونَقاءِ النفْسِ والتَّفْكيرِ بهدُوءٍ .



و(محمدٌ) فى عُزْلَتِه لم يَكُنْ بعيدًا عَن النَّاسِ وَما يَحْدثُ فى مكَّةَ ، وَلكنَّهُ كانَ يتزَوَّدُ بالصَّفاءِ ونَقاءِ النفْسِ والحِكْمةِ ، ثم يُخالطُ النَّاسَ وَيَنْدَمِجُ فى الْمُجْتَمع ويَحْضرُ اجْتِماعَاتِهم وَنَدَواتِهم ، ويشْتركُ فى حلِّ المشاكلِ وَوَضْع الْحُلُولِ كما رَأَيْنَا .

ولَعلَّ (أَشْبالَ الإسْلام) قَدْ عرَفُوا الآن الْفرْقَ بين عُزْلَة (محمد) وَخَلْوتِه قبل بَعْثَتِه ، وبينَ اعْتزالِ بعضِ النَّاسِ وَعدم مُشاركتهم فى قَضَايَا مُجْتمعِهم . إنَّ عُزْلَتَهُ كانت فُرْصَةً للتَّأمُّلِ والتَّفكُّرِ والبُعدِ عن اللَّهْوِ وَصَخَبَ الحيَاةِ ، لكنَّ هذا كُلَّه لم يَمْنَعْه أَنْ يُسْهِمَ فى حلِّ قَضَايا أَهْلِه وبَلَدِه .

وكـانت هذه العُـزْلةُ فى الفَـتْـرَة التى سَـبَـقتْ نُزُولَ الْوَحْيِ على (محمدٍ) ﷺ بمثابَةِ تَهْيئَةِ نَفْسِه ورُوحِه لِتَلَقِّى هذا الوَحْيِ الذى أَضاء الْمُجْتَمعَ نُورُهُ وأَخْرج النَّاسَ مِن الظلُماتِ إلى النورِ .

وهكذا كانتْ طُفولةُ الرسول ﷺ مِثالاً حيًا وتَجْسيدًا لحياة أَعْظمِ مَخْلوقٍ ، طفولَةً فيها الإحْساسُ بالْمسئُولية ، وتقْديرِ قيمةِ الْعملِ ، والاسْتِقامة والطُّهر ، والابتعادَ عنِ اللَّهْوِ .

طُفُولةً عُرف صاحِبُها بالحِكمة والتأمُّل والمشاركة فى قضايا الْمُجتمَع وحُضورِ مُؤْتمراتهم والسَّعْى من أَجْلِ قضاءِ مصالح النَّاسِ .

(تَمَّتْ)

رقم الإيداع : ٢٠٨٠
الترقيم الدولى : ٤ - ٣٠٧ - ٢٦٦ - ٩٧٧